

لم تكن لنا حياة قبل أن نولد

الكاتب

العلامة الدكتور إبراهيم هلال



فصول

لم تكن لنا حياة قبل أن نولد

بقلم الدكتور : ابراهيم ابراهيم هلال

حاول الدكتور مصطفى محمود فى مقال أن يؤكد فكرته فى اثبات وجود للانسان قبل ولادته ، أى وجود لنفس الانسان قبل أن تحل فى بدنه ، على أساس من نظرية المثل التى قال بها أفلاطون ، وهى أن هذا الوجود الذى نراه ، وهو فينا ليس الا ظلا لوجود سابق وصورة أقل فى الكمال من ذلك الوجود الحقيقى أو المثالى الذى احتفظ اللـــه به فى الملأ الاعلى ، وجعل هذا الوجود تمثيلا له ، أو رمزا .

ويستخدم الدكتور مصطفى لتأكيد ذلك مظاهر الطفولة الاولى مستدلا بها على وجود النفس قبل أن تحل فى البدن فيقول : « فنحن نرى الاطفال الرضع يتفاضلون بخيرهم وشرهم منذ ميلادهم ، فمنهم من يعض الثدى فى شره عدوانى ، ومنهم من يربت عليه فى حنان ، يفعل كل منهم ذلك ابتداء ، وليست كرد فعل على البيئة ، فالبيئة واحدة فى الحالتين ، وهى الام ... » مع أن هذه الصفات حسب علم الوراثة العميق والدقيق والمعقد وحسب علم النفس ، ليست إلا صفات من الآباء والامهات المباشرين أو الاول والمبعدين فى العراقة والقدم ، ويختلف فيها الانسان من طفل الى آخر : الاخ عن أخيه حسب نفسية أمه وتطورها ، وظروفها فى مدة حمله وارضاعه ...

ثم يبنى على هذا الاساس المتوهم أن قول عيسى عليه الســـلام الذى جاء فى القرآن الكريم « انى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة .. » — بصيغة الماضى فى كل هذه الافعال : آتانى الكتاب ، جعلنى نبيا ، جعلنى

مباركا ، أوصانى ... دليل ذلك الوجود الاول قبل الولادة وأن الله قد جعل له كل ذلك قبل مولده : خاطبه فأوصاه وآتاه ... الخ • ولم يلاحظ أن تعبير القرآن الكريم بالماضى فى مثل هذه المواقف التى لم توجد بعد ، انما هو حسب القاعدة البلاغية التى تختار الماضى فى التعبير عن المستقبل تأكيدا لوجوده مستقبلا ووقوعه ، كما قال تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه ... » فلانه سيقع لا محالة وسيأتى ، أخبر الله عنه بالماضى ، ولذلك قال بعدها « فلا تستعجلوه ... » وهذا أصل بلاغى معروف • ففى الوقت الذى يتكلم فيه عيسى عليه السلام فى المهد لم يكن قد أوتى بعد شيئا ، بدليل الآية الاخرى : (ويعلمه الكتاب والحكمة ...) آل عمران ٤٨ • ونظرة الدكتور الى حياتنا على أنها حياة خسيسة ، وأنها فى مجملها هى (أسفل سافلين) ، وأن صفات الحيوانية التى تصاحب الانسان من بول ، وتغوط ، وهلاك وتلف ، يطبع هذه الحياة بصفة الخسة ، وأنها ليست أكثر من ظل ، أو «بروفة» للحياة المثالية السابقة أو اللاحقة فى الآخرة — نظرته هذه بعدت به عن الحق والحقيقة • فقد نسى الدكتور صنع الله الذى أتقن كل شىء والذى يعرفه هو فى (عجائب الحيوان) وتركيب الانسان ، كما نسى قوله تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ؟ • وقوله (يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم ،الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك) ، وغابت عن ذهنه تلك الموازنة التى وازن الله فيها بين الانسان والحيوان فى قوله (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم) ؟ فهى حياة كاملة فى الواقع ، لان الله أرادها كذلك ، وصنعها كذلك ، وكرم الانسان بها فقال : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ، والحياة الدنيا أو حياة الارض بطبيعتها لها خلقها ، ولهؤلاء الخلق تكوينهم وظروفهم التى تتناسب مع الارض ، وطعامها ، وأجوائها ولهذا أخرج آدم من الجنة ، أو نزل الى الارض ، بعد أن سجدت الملائكة له • ومع ذلك فليس الاخراج من الجنة الى الارض انتكاسة لآدم وذريته ، أو هبوط بهم عن مستوى التكريم بدليل

الآيات المتقدمة فى ذلك • وآيات القرآن الكريم الاخرى التى تتلطف مع الانسان وتخاطبه ، وتوشده وتهديه ، وتبصره وتوضح له طريق الخير وطريق النفع ، دليل على كرامة الانسان على الله وقيمته عنده ، وأن حياته هذه ليست « بروفة » للحياة الآخرة كما يقول الدكتور مصطفى محمود ، فحياة الآخرة تختلف بالنسبة للانسان من جانبها المادى والنفسى كل الاختلاف عن حياته فى الدنيا ، وما ذلك الا لانها حياة توافقت مع الحياة الآخرة ، أو مع حياة الجنة والنار •

كما أن هذه الحياة أيضا ليست بظل لحياة مثالية سابقة للانسان ولصورة كاملة لها عند الله أو فى الملأ الاعلى ، لان الله سبحانه وتعالى يحدثنا بأنه خلقنا فقال : (ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم •••) ، وهكذا فى العديد من الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة التى تبين أننا بوجودنا هذا مخلوقون لله وأنه أول خلق ، أو بدء خلق • وقد تحدثت هذه الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة مستعملة كلمة (الخلق) على أنه بدء وجود كما هو الاستعمال والمعنى فى اللغة العربية ، فقد جاء فى القاموس : (الخلق) : التقدير • والخالق فى صفاته تعالى : المبدع للشىء المخترع له على غير مثال سبق • فالخلق هو الايجاد من عدم كما قال تعالى : (أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) ٦٧ مريم ، وقوله تعالى لزكريا عليه السلام : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) ٩ مريم •

والله سبحانه وتعالى ، قد فرق فى هذا بين البدء الاول للانسان وهو الايجاد من عدم ، والذى نسميه خلقا ، وبين البعث يوم القيامة الذى ليس ايجادا من عدم ، وانما هو (بعث) كما توحى بذلك تلك اللفظة أى أنه بعث شىء موجود أى اعادته ، أما الخلق فهو ايجاد من عدم ، ولاول مرة • فقال تعالى عن البعث : (كما بدأنا أول خلق نعيده) •

وقال عن الخلق : (الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ، ونفخ فيه من روحه •••) والتسوية هنا هى الخلق ، فقد جاء فى القاموس :

(وخلق العود : سواه) وقد قال الله فى البعث ، وهو الاعادة ، أو النشأة الاخرى (... بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم) فلأن البعث اعادة خلق ، قال لنا : (لتنبؤن بما عملتم) فقد سبق وجود لنا هنا قبل البعث وعمل !! .

أما قبل الخلق فلأنه لم يسبق لنا وجود : قال لنا : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ، لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) ، للتى هى آلات العلم ، وآلات الاحساس بالوجود بعد الولادة ، والتى تعطى الفائدة من الوجود . فلو أننا كنا موجودين قبلا ، لكنا قد علمنا وكان لنا سمع ، وبصر ، ولم يقل لنا الله : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) ، وما كان نفى عنا العلم.

فاطلاق كلمة الخلق فى القرآن الكريم ، يعنى الايجاد من عدم، ولهذا سماه الله سبحانه (الخلق الاول) وسمى البعث خلقا جديدا فى قوله : (أفعيينا بالخلق الاول بل هم فى لبس من خلق جديد) ، وأضاف كلمة البدء الى الخلق ، فقال (الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين) وقال : (كما بدأنا أول خلق نعيده) .

فلو أن خلقنا ليس هو الخلق الاول ، أو أنه ليس ايجادا من عدم، لعبر فى جانبه بالتعبير الذى اختاره فى الحديث عن البعث ، أو استعمل فيه الكلمات التى أطلقها على البعث ، وعلى النشأة الآخرة ، وعلى الخلق الجديد .

ونجد هذا واضحا فى الرد على منكر البعث ، الذى قال من يحيى العظام وهى رميم ، فقال تعالى : (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة).

فهذا حديث عن عظام الخلق فى هذه الدنيا ، وقد وجدت فقط فى هذه الدنيا ، فسمى الله هذا الايجاد انشاء لأول مرة .

كما تتضح لنا هذه الموازنة أيضا بين البعث والخلق فى هذا التعبير القرآنى المجيد : يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة ، وغير

مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ٠٠) ، أى ان كنتم فى ريب من الاعادة بعد الوفاة ، فانا خلقناكم٠٠ الخ ٠ والله سبحانه وتعالى يعقد هذه الموازنة ، لأن الاعادة فى منطق الناس ، أهون من البدء ، كما قال فى آية أخرى : (وهو أهون عليه) أى أنه سبحانه اذا كان قد أوجد الناس ذلك الايجاد الذى أمامكم من لا شئ فالاعادة يوم القيامة أهون ، وان كان الله لا يعجزه شئ ٠ كما أن الله قد أكد هذا الخلق بآية أخرى ، جمعت بين خلق الجسم أو ابتدائه من عدم وخلق الروح وذلك فى قوله تعالى : (الذى أحسن كل شئ خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون) ٠

وهذا هو ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطابه لنا ، وحديثه عن وجودنا هذا ، وأنه بدء لم يسبق بوجود قبل ، فقال : « ان أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات : فيقال : اكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » ٠

والاستدلال بآية الميثاق بعد ذلك على أنه كان لنا وجود سابق خاطبنا الله فيه حينما كنا ذرات ، أو فى عالم الذر ، وعلى هذا فيعتبر لنا وجود سابق ، لا تسمح به الآيات المتقدمة ، ولا الحديث الشريف، وأن فهم الآية يجب أن تراعى فيه هذه الاصول ، والحقائق الدينية والعقدية التى يحتويها القرآن الكريم والحديث الشريف على ما تقدم، وكذلك الاصول البلاغية والذوق البلاغى العام فى اللغة العربية ٠ فالذى نفهمه من الآية : (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ٠ أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ٠ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ !) الذى نفهمه

الله بذلك ، وانما المراد منها أن الله فطر الناس جميعا على توحيده ، فهم يوحدون الله بفطرتهم بعد ولادتهم ، لمـا قام فيهم من توحيد الفطرة التى خلقهم الله عليها ولمـا قام لهم من الشواهد والدلائل على وحدانيته، كما قال : (فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها) فهى بهذا تشير الى توحيد الفطرة لا الى ما قاله البعض من أنها دليل على وجود النفوس قبل الابدان وأنها كانت حية عالمة ناطقة ، ولذلك خاطبها الله وأجابت خطابه •

كما أنها تبكيت للكفار حين تكلفوا الكفر ، وخرجوا به على طبيعتهم، وغيروا فطرة الله التى فطر الناس عليها • وهو ما يشير اليه قـوله صلى الله عليه وسـلم ويبينه : (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ••) ، فهى الزام للكافر بكفره وأن لا معذرة له ، ولا حجة فى اتباعه أبويه والاحتجاج بكفرهم وأنه ذرية من بعدهم فتفسير الآية وفهمها يجب أن يقوم على حقائق الدين وأصوله ، وعلى الاصول البلاغية والذوق العربى فى التعبير وبالنظر الى أجزائها مجتمعة ، لا أن نخضعها لنظرية المثل الافلاطونية ، التى هى تكهن صرف ، لا يستند الى دين •

ونحن فى هذا المجال الغيبى مأمورون بالتزام ما جاء من عند الله وفهمه باللسان العربى ، وذوقه ، وعلى أساس من الاصول والحقائق الدينيـة •

فالقول بوجود سابق لنا قبل الولادة ، أو بوجود النفوس قبل الابدان ، هو قول أفلاطون وأصحاب التناسخ ، وهو يفضى الى ذلك أيضا بمن يقوله ، والى القول بقدم النفوس ، بل ان أفلاطون نفسه قد صرح بأزليتها •

ابراهيم ابراهيم هلال